المنهج النقدي في النظرية النقدية*

د أحمد عطار شعبة الفلسفة / قسم العلوم الإنسانية / جامعة تلمسان.

عند العودة إلى الفلسفات القديمة وبالتحديد الفلسفة اليونانية عند لحظة تحولها من المنحى الأسطوري إلى بداية العقلانية الوضعية نجد أن هناك حلقة لا تكاد تبين وهي النقد فلا يمكن تحقيق تحول ما في الفلسفة دون مراجعة المنظمات الفكرية السابقة ومن ثمة هدمها وإعادة بناءها يصدق الأمر على نقد عصر النهضة للفكر القروسطي أو النقد المعاصر للأنساق الفكرية السابقة عليه ومنه نقول أن النقد الذي سيظهر بشكل جلي مع «امانويل كانط" يقف وسط حالة التحول الفكري التي يقوم بها كل عصر وهذا بالضبط ما كان "هوركهايمر ماكس» يريد الإشارة إليه وتبيان أن «النظرية النقدية» لها أصول قديمة قبل «كانط" لكن الجديد الذي قدمه "كانط" هو اعتباره للنقد كملكة تحليلية من ملكات العقل إلا أنه قد وضعها محاذية العقل عندما بدا محاكمته في ثلاثيته: "نقد العقل"، من هذا التقديم المرجعي للنقد نستفهم ما النقد؟.

مفهوم النقد:

ما مدرسة فرانكفورت؟

قبل الحديث عن مفهوم النقد عند مدرسة فرانكفورت يجب أن نتطرق أولا إلى ماهية هذه المدرسة،

ينطبق الأمر على «مدرسة فرانكفورت»** فهي بتوجهها النقدي قد واصلت التقليد الألماني منذ «كانط" في أهمية النقد بل تعود كذلك إلى "هيجل" الذي جعل من حالة السلب أو النفي négation ضمن لحظات تمظهر الروح فلم يعد السلب مناقضا أو خارجا عن العقل بل هو في صميمه ومكونا انطولوجيا ايجابي في بلوغ الروح ذروة اكتمالها، نعود ونقول إن «مدرسة فرانكفورت» استثمرت كثيرا في النقد وبحثت عنه في كل الفلسفات السابقة بل إن صلتها بالماركسية التي كانت تعتبر أنها خيارها المعرفي في الحقيقة كانت انتقائي إن لم نقل انتهازي.

كل ما كان يهم المدرسة من «ماركس» والماركسية هي شحنتها النقدية القدرة على الرفض وقول لا كما يشرح «هربرت ماركيوز" (1898-1940) في كتابه: "الإنسان ذو البعد الواحد" وما توجه «ايريك فروم» (-1900 1940) نحو الفرويدية والماركسية إلا لاستخراج شحنتها النقدية الكامنة في ثناياها مع ذلك يمكن فصل هذا النقد عن أعمال ما اسماه الفيلسوف الفرنسي «بول ريكور" الجروح النرجسية الثلاث للإنسان وهو يقصد نقد مركزية الإنسان من طرف "الفرويدية" أولا التي أظهرت شساعة مملكة اللاوعي أمام الوعي ثانيا نقد ادعاء الإنسان انه ينزل من أصل سامي أو الهي بل صدمة الاكتشافات البيولوجية «الداروينية»، ثالثا الثورة «الكوبرنيكية" أين اتضح أن الإنسان ليس مركز هذا الكون وهو يقف كذرة بسيطة على هامش الكون الهائل، كلها انتقادات كان لها الأثر البارز على الفلسفة المعاصرة.

إن الكثير من المنتمي لمدرسة فرانكفورت يشتركون في هذه الآلية والمقاربة من النصوص الفلسفية بغية استثمار النقد داخلها والاستفادة منه فيما سيصبح الخط الناظم والقاسم المشترك بين كل أعضاء

المنارة للاستشارات
www.manaraa

«مدرسة فرانكفورت“ رغم اختلافهم الشديد إلا أن هذه الحالة النقدية هي قاسمهم المشترك إضافة إلى الانفتاح على الفلسفات والعلوم الاجتماعية للاستفادة من تجاربها النقدي وهو الأمر الذي نجده منذ تعامل ”أدورنو“ (1903-1969) ”مع النص النيتشوي“ إلى تعامل هابرماس الانتهازي من مكتسبات العلوم الاجتماعي والمنعطف اللغوي.

ولعل نعت «مدرسة فرانكفورت» بالنظرية النقدية لهو أحسن تعبير عن الجو العام الذي يجمع عددا كبير من الفلاسفة الذين يحومون بالمدرسة دون أن ينتموا إليها أحيانا مثل «فلتر بنجامين» أو «سيفريد كراكورد*“ الكل أراد الوصول إلى الكشف عن دروب جديدة كما يعتبر نقد التنوير ومشروع الحداثة (عقلانيتها ونتائجها) الموضوع الأساسي للكثير من فلاسفتها «فباختلاف الأساليب وطريقة التفكير وبين كتاب ينتمون آخرون لم ينتموا للمدرسة فان وحدتها تظهر كما يقول «ديروند كاسلن“ J.- M. Durand-Gasselin «في وحدة النظرية التي تتحدد مهمتها في تحرير الجماهير ».

إن النظرية العامة التي نتحدث عنها لم تفرض نفسها دفعت واحدة بل تبلورة مع السنين، وعبر مؤلفات متعددة تقضم جوانبها اكثر من يراكمونها انها تتشكل لكن ببطئ بريتم تاملي تتراكم فيه الملاحظات والفرضيات»...... بتطعيم فلسفاتهم بتجارب نقدية مختلفة قد تصل أحيانا إلى الاستعانة بالخيال والفن* من اجل هدم المعطى الأمر الذي انتهى إليه «هربرت ماركيوز“ في أخر كتاب له: ”البعد الجمالي“ أو عمل «أدورنو“ التي يقيم فيها على شاكلة ”نيتشه“ نقد راديكالي للعقل يجعل هابرماس في الخطاب الفلسفي للحداثة يتساءل على أي أرضا يقوم «أدورنو“ ليقوم بكل هذا النقد العدمي للعقل“ ويظهر كيف أن النقد هو الملكة الوحيدة القادرة على وضع مسافة مع العقل وكان النقد يقف خارج العقل خارج الواقع يذكر الإنسان بإنسانيته وقيمه ويحد من دغمائيته وهذا لا يعني اقتراب النقد أو النظرية النقدية من الشكية بل إنها تجعل نفسها وسطية بين الدغمائية والنزعة الشكية بل إن هذا الأمر ليدخل في صميم الفعل الفلسفي الذي لطالما اظهر النقد كمحفز للبحث عن إمكانات تفكير جديدة الم تكن جمهورية أفلاطون نقدا للواقع وفتحا لبديل خارج القائم وألا يعتبر البخلاء للجاحظ نقدا اجتماعيا لظاهرة متفشية في عصره وهلم جر من أنواع ومستويات للنقد عرفها الفكر الإنساني.

لا يتوجه النقد إلى الخارج فقط بل يتوجه كذلك إلى الداخل على شاكلة النقد الذاتي لقد كان الدرس الكانطي واضحا في هذه المسالة فلا يمكن للعقل ادعاء الاطلاقية ولا تجاوز حدوده بل يجب أن يحقق النقد الذاتي القدرات والإمكانات الحقيقية للعقل بهذا الشكل يحمل النقد معنى التحليل والمراجعة وعدم قبول الأمور كما هي عليه أو تقبل الأشياء كما هي معطاة ، ولعل هذه كذلك «أهم خاصية للنظرية النقدية ألا وهي تطورها المتواصل عبر مراجعة مستمرة لذاتها».

وهنا تظهر أهمية النص العمدة لكانط ما هي الأنوار؟ إنها فض الوصاية والنقد فنعت «كانط“ لعصره انه بحق عصرا للنقد كان يدشن مهمة قديمة جديدة للعقل ألا وهي النقد بمستويه المعرفي والاجتماعي الفردي والجماعي*، علما أن هذا النقد لا يقف عند مستوى تحليل الواقع القائم وتعريته بإظهار نقائصه بل يعول عليه أن يستمر وينتقل إلى تغيير الواقع بمعنى أن يكون أكثر عملانية وهو النداء الذي وجهه ماركس للفلسفة والتزم فلاسفة المدرسة النقدية على العمل به.

المنارة للاستشارات
www.manaraa

لقد كانت بدايات مدرسة فرانكفورت مرابطة بقوة بالفلسفة العملية وعلم الاجتماع النقدي إضافة إلى الاقتصاد السياسي والماركسية كلها بنكهة نقدية ولن تجد بعدها ألتنظيري إلا بترأس «ماكس هوركهايمر" (1890-1973) للمدرسة وتقديمه درسا افتتاحي بعنوان: "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" 1937 الذي يعتبر البيان التأسيسي للمدرسة مبتعدا عن الفلسفة التأملية ومؤسسا لخط جديد يهتم بالحاضر واليومي ويضعه تحت عدسة الاختبار والتشريح.

وكما قلنا من قبل فان تسمية هذا التوجه بالنظرية النقدية أوسع واشمل من تسمية مدرسة فرانكفورت التي تشير إلى المؤسسة وتحدد الانتماء إليها فقط عبر الانخراط فيها في حين أن تسمية النظرية النقدية ترتبط بالمنهج الذي اتبعه الكثير من المنتمين وحتى الغير منتمين للمدرسة لكن المنهج يضعهم باختلاف مواضيعهم في خانة واحدة* وحتى أن تسميتهم بالنظرية النقدية يقطع الجدل المثار حول الانتماء من عدمه للجيل الثاني في المدرسة ونقصد «يورغن هابرماس" ويمكن التلخيص والقول إن المنهج النقدي والفلسفة الاجتماعية والاهتمام بالحاضر الانفتاح على العلوم l'interdisciplinaire هي السمات العامة للنظرية النقدية التي لا تتوانى في التزود بأدوات منهجية من مناهج أخرى كالفلسفة التحليلية فلسفة الحياة وعلم الاجتماع الفيبري (ماكس فيبر) والفينومينولوجيا والهيرمونوطيقا فحالة الانفتاح وإدماج عناصر جديدة من فلسفات أخرى تعتبر كذلك من سمات النظرية النقدية التي بدأت هذه العملية الجدلية مع الهيجلية والماركسية ثم الفرويدية لتواصلها مع كل العناصر الجديدة.*

وما دمنا نتحدث عن المنهج النقدي وكيف أن انطلاقته كانت مع أعمال «ايمانويل كانط" إلا إنهم لا بد من تحليل تأثير الماركسية على هذا المنهج فالكثير من الباحثين ربطوا المدرسة بالماركسية وبالفعل فالحال كان كذلك لكن ماركسية المدرسة لم يكن "ارثوذكسيا" كما أشار إليه "جورج لوكاتش" (1885-1971) بل تم تطعيمها بالعودة إلى كتابات ماركس الشاب خاصة كتابه "مخطوطات 1844" أين كان ماركس الشاب تحت تأثير "هيجل" الاهتمام الذي نجده عند "ماركيوز" "ولوكاتش" مبتعدين عن المادية الصارمة التي وصلت إليها الماركسية فيما بعد فالتملص من النزعات المادية المتصلبة* كانت المدرسة على الدوام تطعم الماركسية بفلسفات إنسانية كالوجودية أو فلسفات الحياة (دلتاي شليماخر) والفلسفة المثالية الألمانية مع "فريديريك هيجل".

عدم الالتزام بالمقولات الماركسية كلها والانحراف عن خطوطها العامة سمة عامة لأعضاء النظرية النقدية رغم بقاء الروح الماركسية ففي كتاب «يورغن هابرماس": "بعد ماركس" يتحدث عن علاقته وماضيه الماركسي إلا انه يعدل عن الخط التقليدي ليقلب أهم المقولات الماركسية التي تقول بتأثير البنية التحتية على الفوقية وأهمية العمل ليقلب هابرماس القاعدة ويجعل من التفاعل الإنساني اليد العليا في التغيير الاجتماعي في نفس الوقت يلقح الماركسية بالانجازات اللغوية علما أن مبحث اللغة لم يكن له مكان في الماركسية التقليدية ونلاحظ دوما على مستوى المنهج التركيز على النقد ونحن هنا أمام نقد الرأسمالية والمنظومة الإيديولوجية التي تقوم عليها مع كل ما سببته من اغتراب وتشيؤ الإنسان المعاصر.

ويجب التنبيه أن ماركسية النظرية النقدية لم تكتف بنقد الرأسمالية بل قامت وفق المنهج النقدي

المنارة للاستشارات
www.manaraa

الكانطي بالنقد الذاتي أي نقد الماركسية ذاتها وبالأخص النموذج السوفياتي وما يحمله هو كذلك من اغتراب وتنكر لإنسانية الإنسان وهذا ما قام به بالفعل «هربرت ماركيوز“ في كتابه: ”الماركسية السوفياتية“، و»ادورنو“ مع ”هوكهايمر“ في كتابهما: ”جدل التنوير“ 1940 يتشابهان في جذرية النقد ”ومهمة الفن التحريرية“، ويختلفان في طابع النقد بين نقدية تشاؤمية ونقدية تفاؤلية.

كما تتبعنا فالأرضية الماركسية قدمت للنظرية النقدية أدوات حاسمة وهامة للتحليل وتعددت تطبيقاتها في الاقتصاد (كارل غرونبرغ*) والأدب (فلتر بنجامين) علم الاجتماع (ليو ليفينتال) وعلم النفس (إيريك فروم) والعلوم السياسية(اوتو كريشهايمر**) واختلفت مواضيعها من نقد النازية والماركسية الأرثوذكسية للوكاتش مرورا بالنقد الثقافي «لأدورنو“ ونقد مجتمع الاستهلاك لماركيوز وصول إلى نقد الوضعية والعلموية لهابرماس.

إضافة للتناول النقدي فانه هناك مواضيع أساسية تتكرر باستمرار داخل النظرية النقدية وتشكل أمراضا اجتماعية pathologies sociale تم معالجتها أهمهما: «الهيمنة كنقطة لقاء واضحة في النظرية النقدية» إضافة إلى «التشيؤ“ و“الاغتراب“ ويتضح ذلك بقوة في أعمال الثلاثي (أدورنو-هوركهايمر-ماركيوز) بتتبعهم لمصير العقل التنويري وما أنتجه في الأخير من ”عقل أداتي“ يحمل رغبة جامحة للسيطرة على الطبيعة وسينقلب هذه التسلط والتملك للموضوع على الذات نفسها ويسعى لفرض نفس المقولات عالم الأشياء على عالم البشر من تكميم وقياس وتنميط وإخضاع الحياة الإنسانية لمنطق السوق وعلاقات الإنتاج مما يعني موت الإنسان وسحق الحرية في مجتمع الاستهلاك الذي يمارس كما يقول ماركيوز «قمعا زائدا عن حده».

يعتقد جل أعضاء النظرية النقدية أن العلم قد انخرط في لعبة «العقل الأداتي“ وان إيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم على حسب تعبير ”ماركيوز“ تتلاعب بخيوط العلم وتستثمره لصالحا لزيادة قمع البشر وتدجينهم وهي نتائج توصل إليها ”ماركيوز“ سيجعلها ”هابرماس“ منطلقات لنقد العلموية، «فلابد من الإشادة بفضل فلاسفة مدرسة فرانكفورت في نقد المفهوم الزائف عن العلم، وهو الذي يتصور أصحابه أن العلم متحرر من القيم ومستقل تمام الاستقلال عن الاهتمامات والمصالح الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجية.»

كما بين «تيودور أدورنو“ سقوط الفن كذلك في الفخ، وبين ”هوكهايمر“ و»ايرش فروم» كيف إن علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية بصفة عامة سقطت في «الريضنة“ (القياس الرياضي) وتكميم الإنسان وأصبحت في خدمة الآلة الصناعية والسلطة السياسية للسيطرة على الإنسان، وحدها الفلسفة على حد تعبير ”ماركيوز“ لها القدرة على التملص من هذه اللعبة بفضل حسها النقدي وهذا بالتحديد ما يعتبره ”ماكس هوركهايمر“ مهمة النظرية النقدية والفلسفة عامة، حين يشير في أخر سطر لدرسه الافتتاحي المنشور سنة 1937:“ إن كل فلسفةٍ تفكر في إيجاد السّلْمِ في ذاته، وفي حقيقة ما، لا علاقة لها بالنظرية النقدية»“.

«نيتشه» ملهما للنقد في «مدرسة فرانكفورت».

www.manaraa

لعل الجانب الأبرز في امتدادات الفلسفة النتشوية بعد نتشه* يتمظهر في ثنايا الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت، التي انطلقت في الحقيقة كحلقة من المفكرين الماركسيين حاولوا تجديد الفكر الماركسي وتقريبه من عصرهم وموطنهم، فرغم إعجابهم في البداية بالماركسية السوفيتية إلا أنهم سرعان ما نقدوها واتهموها بالتحجر (الأرثوذكسية)، تماما كما فعل «جورج لوكاتش»* بعد نضج هذه المجموعة من المفكرين، لذا سيتفقون على تأسيس مدرسة بطابع اجتماعي، فيهتمون بعلم الاجتماع، التحليل النفسي والفلسفة، مبتعدين عن الخط الماركسي التقليدي الثوري، وعن البحوث الاقتصادية الأولى، ويهتمون بموضوعين كانت لهما الصدارة في البحث هما:

الموضوع الأول: «العداء للسامية»، بما أن اغلب أعضاء المدرسة من اليهود(تيودور أدورنو، ماكس هوركهايمر، هربرت ماركيوز..) الشيء الذي سبب نفيهم، بعد صعود الحزب النازي إلى السلطة واعتلاء ادلف هتلر سدة الحكم.

الموضوع الثاني: تمثل في دراسة مفهوم «السلطة» (سلطة الدولة الشمولية «التوتاليتارية»)، وهو الجانب الأهم في اللقاء الفكري بين نيتشه وأعضاء المدرسة، لقاء ذو أبعاد سياسية يتغلف بسؤال جوهري هو: لماذا انتهى مشروع الأنوار المنادي بالعقلانية، الحرية، الديمقراطية، وغيرها من الشعارات المتنورة إلى حربين عالميتين، التلوث، الرعب النووي، أزمة أخلاقية وقيمية...الخ؟.

طبعا هناك تعامل مزدوج من طرف فلاسفة مدرسة فرانكفورت مع نيتشه إلى حد التناقض، فنلمس العلاقة المتباينة مع نيتشه، فمن جهة استفادت المدرسة من النقد «النيتشوي» للعقل الغربي، الذي ادعى الحرية والمساواة، وأنتج الاستعمار، ونهب خيرات الشعوب، بل و دمر ثقافات الأمم باسم التحضر والتنوير والعقلانية، فتم القضاء على تنوع ثقافي وقيمي، كان مكسبا للإنسانية، وعوضها بموجة مادية تسقط الإنسان في خواء روحي وأخلاقي رهيب.

نيتشه زود المدرسة بمفاتيح النقد لكنه لم يسلم منه، فهو متهم على حد تعبير «يورغن هابرماس» (من الجيل الثاني للمدرسة المعاصرين، وريثها وممثلها الأبرز)، بتغذية الإيديولوجية النازية، حتى أن «جورج لوكاتش» في كتابه «تحطيم العقل» يتهمه صراحة بالمنظر للفكر النازي، ولو انه في آخر الكتاب، يخفف من حدة النقد ويتهم النظام النازي وإيديولوجيته باستغلال فكره، علما أن زوج شقيقته كان عضوا بارزا في الحزب.

علاقة «هربرت ماركيوز» بنيتشه كانت انتقائية، فهي لا تختلف عن التقنية التي ينتهجها ماركيوز مع كل من هيجل، ماركس وفرويد، أي عملية الفرز والانتقاء، ماركيوز لا يكترث بالطابع العام لكل فيلسوف، بل هو يكتفي بخاصية واحدة، تجمع هذه الأسماء المتفرقة، إنها خاصية «النقد» la critique، فالطاقة النقدية النافية هي القاسم المشترك والقوة التي يسعى إلى استنطاقها لدى كل واحد منهم، فهو يرى في ماركس قوة النقد الموجه إلى الرأسمالية والمجتمعات الصناعية المتقدمة، وفي «فرويد» النقد الموجه للوعي، ونيتشه النقد الراديكالي للقيم الغربية، تماما كما سيجد «تيودور أدورنو» في نيتشه المعين والسند لنقد العقل الانواري، ومشروع الحداثة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa

إن «اليوتوبيا» التحررية، التي نشدها ماركيوز، بأبطاله الأسطوريين، «اورفيوس» و«نرسيس»، تقترب من التوظيف النيتشوي للأساطير لأجل التحرر من سلطة العقل القاهرة، ومن سحق مركزية مفهوم الهوية، كما أن الحلم الرومنسي، في تجاوز الحاضر المتأزم نفسه راود أغلب المفكرين.

وقد لا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن الموقف من نيتشه، يتباين بين الجيل الأول للمدرسة، الذي يبلغ به درجة الإعجاب، مثل «هوركهايمر ماكس» و«تيودور ادورنو»، خاصة في كتابهما المشترك «جدل التنوير»، وجيل ثاني للمدرسة (يورغن هابرماس) ينتقده بشدة بالأخص من خلال مؤلف «الخطاب الفلسفي للحداثة»، بل وأكثر من ذلك يلحق سهام النقد حتى بالفلاسفة المتأثرين به، حين ينعتهم «ذرية نيتشه»، وهو يقصد المفكرين الفرنسيين الما بعد حداثيين أمثال: «جون فرانسوا ليوتارد»، «جاك دريدا»، و«ميشال فوكو»، بل إن هابرماس ينتقد رائحة نيتشه في كل فكر استلهم منه، مثل «مارتن هيدغر» و «جورج باتاي»، لكن لماذا هذا النقد العنيف لنيتشه؟.

نلحظ أن هابرماس لا يأخذ المنحى التشاؤمي، الذي أخذه الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت في نقدهم الجذري لعقل الأنوار، ومشروع الحداثة، فنيتشه وتابعيه أرادوا رمي كل منجزات هذا العصر إلى مفرغة عمومية مخصصة لفكر الحداثة* مع تنوعه، فلم يُقدروا انجازاته، كالمساواة، العدالة، حقوق الإنسان، وغيرها، فجاء نقد مشروع التنوير وكان جائزا، بل وضروريا، لكن لا يجب –حسب هابرماس- أن يكون جذريا وعدميا، فلا يمكن نعت كل مكتسبات حضارتنا بالسلبية، وهنا نفهم المحاضرة الشهيرة التي ألقاها هابرماس بمناسبة حصوله على جائزة «ادورنو» في فرانكفورت حين قال أن: «الحداثة مشروع لم يكتمل بعد»، رادا على الذين احتذوا حذو نيتشه وأعلنوا «نهاية الحداثة»، باللازمة «ما بعد»، وبين «الما بعد» و«ليس بعد»، اشتعل نقاش حاد، وسجال فكري طويل، خاصه هابرماس، مع من اسماهم تارة «ذرية نيتشه»، وتارة أخرى «المحافظين الجدد»، حيث حذرهم من مغبة التنكر للحداثة وقيمها، وإعدام العقل، والعودة إلى الحالة السابقة لها، فقد حذرهم من غواية وفتنة نيتشه.

نيتشه يقف موقف المتخلي الكلي عن مشروع الحداثة، لأنها أعطت حاضرا ممزقا، غير أن العزوف عن برنامج الأنوار بالجملة لهو إخفاق في تصور هابرماس، فلا يمكن استبدال العقل «باللاعقل»، في مقابل ذلك من الممكن معالجة تضخم العقل وتمركزه على الذات الغربية وتصحيح انحرافاته والتوقف عن ادعاء بلوغ الحقيقة والمطلق، لكن ليس من الممكن إلغاؤه. وهما سنلحظ أن نتشه قد أحدث جروحا بليغة بالعقل، رغم انه ليس الوحيد، ف«سيجموند فرويد» كذلك قد عمقها، عندما استظهر شساعة اللاشعور أمام الوعي، لكن نيتشه أسس للأمر فلسفيا، ففكر من خلاله هوركهايمر وأدورنو، في كتابهما المتشائم «جدل العقل»، حيث نلمس حضوره الساحق المسبب للتيه، الاضطراب والتشويش، في العبارة الشهيرة :ّ{«إن الأسطورة تنقلب إلى عقل، والعقل يصبح أسطورة»}، وها هنا تظهر اللحظة الأكثر شكيةً في فكر الفيلسوفان -على حد تعبير هابرماس-، الذي يرى على أنهما يقفان في مفترق الطرق، بين دروب العدمية النيتشوية، ومسعى النقد الجزئي المحتفظ على بعض بقايا العقل.

يبين «هابرماس» البدائل «لإعادة بناء الحداثة»، بدلا من الخيار «العدمي النيتشوي» أو السقوط في التشاؤمية، فيفرق بين قيم «الحداثة الثقافية» التي أعلن عنها مشروع التنوير، ولم يستفد منها كثيرا،

المنارة للاستشارات
www.manaraa

ونتائج «التحديث» modernisationالذي كانت له تأثيرات مباشرة وسريعة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ولم تعكس بشكل جيد طاقة الحداثة الثقافية وكل ما كان هو انحراف عن خطها.

إن تسارع تطبيقات التحديث، أدى إلى فقدان التوازن بين المطامح الإنسانية للحداثة، ونتائجها المادية الرافعة من «عالم الأنساق» (منطق السوق، وسيطرة البيروقراطية)، أمام تراجع «العالم المعيش» (الثقافة، المجتمع، الشخصية)، بل واستعماره من الطرف الأول، وهو نفس التحليل المقدم للمجتمعات الإسلامية، التي يُرى على أنها استوردت مبادئ التحديث (التكنولوجيا، التنظيم البيروقراطي، الاقتصاد.. الخ)، لكنها لم تهتم بقيم الحداثة، فلسفتها، وأفكارها، كونها نظرة إلى العالم والإنسان وسلوك يومي، ولا يستقيم التحديث دون نشر وزرع القيم الفكرية للحداثة الثقافية.

إذا ثمة اختزال للحداثة، وإجحاف في حقها، لدرجة أن أدورنو، لا يجد مخرجا منها غير الفن، فيصف هابرماس نيتشه بأنه يسقط فيما يسميه «التناقض الأدائي»، وهو نفس الوصف الذي يطلقه على كل نقد راديكالي للعقل، لأن كل من يأخذ هذا المنحى لا بد أن يتناقض مع نفسه، فأي نقد للعقل لا بد من أن يكون بأدوات العقل ذاته، ولعل هذا هو السبب الأساسي الذي جعل أدورنو يتراجع عن الدرب «العدمي النيتشوي» ويراجع موقفه منه.

ما نستشفه من كل ما سبق، هو الحضور القوي والتعامل المتباين مع نيتشه بين أعضاء «مدرسة فرانكفورت»، من الرعيل الأول إلى الثاني، لكن ما هو مؤكد هو قوة التأثير، فطيف «ديونيزوس» المنفي، الملعون والمتمرد قد أطلق صرخة مدوية، تنذر بموت ونهاية الميتافيزيقا، تماما كما تعلن عن عمق الأزمة الإنسانية، إنها انتفاضة على الوهم، تعلمنا التوقف والمراجعة وإعادة التفكير بمنطلقات جديدة، كما ترفض غض البصر أمام الخطر، أو السير وسط القطيع دون السؤال: «إلى أين» ..؟.

خلاصة:

لا يطمح هذا المقال الى اكثر من تسليط الضوء على مفهوم النقد كملة عقلية مغيبة وكأداة منهجية تحليلية يمكنها تخليصنا من مأزق الدغمائيات، التي تجعل الفكر راكدا لا يقبل التطور، ومنه كان ترحالنا في جوانب مدرسة فرانكفورت لتبيان الخط المنهجي الذي ربط الاعضاء منذ البادية ، رابط الايمان بالاختلاف وجرد لكل الامكانات البشرية المتاحة ، فلم يعد لمفهوم العقل معها تصور احادي عالمي شامل كلي بل همان عقلانيات متعددة ومختلفة تجعل فكرة الحقيقة الواحدة المطلقة من الماضي ، فعالم نيتشه ودرسه اظهر نهاية اسطورة العقل الاوحد وبداية التناثر والاختلاف.

المنارة للاستشارات
www.manaraa